إشراف /فاطمة رشاد

أحمد السعيد: مركز إدريس حنبلة يستغيث

عدن/ فاطمة رشاد:

تعرض مؤخراً مركز إدريس حنبلة لاقتحام من قبل شخص يدعي ملكيته للمكان بغرض تحويله إلى منزل وكانت بعض منظمات المجتمع المدني قد أقامت وقفة احتجاجية أمام مكتب محافظة عدن تطالب بحماية المركز وحماية معالم مدينة عدن من الطمس.

وفي تصريح خاص لمدير المركز احمد السعيد قال : نحن نعمل لكي نسترد المركز والذي يمثل تاريخ عدن وهناك يد خفية تريد أن تطمس معالم وتاريخ عدن ولكننا لن نسمح بذلك وسنحاول أن نسترد المكان.

وأضاف قائلاً: 26 يوماً ونحن لانعرف ما حجم الأضرار التي نجمت من قبل المستولي على المركز ونخشى أن يكون قد تم العبث بما يحتويه المركز .

المؤرخ عبدالله يعقوب خان يقدم لمحات من تاريخ عدن

نجمي عبدالمجيد

في كتابه (جغرافية عدن) الصادر عام 1931م يقدم لنا مؤرخ عدن الأول في القرن العشرين الأستاذ عبدالله يعقوب خان معلومات ومواضيع من تاريخ هذه المدينة التي أصبح الكثير منها في حكم المفقود في الحاضر.

فهذا الكتاب النادر يعد صورة لما كانت عليه أحوال عدن في مرحلة من تاريخ الحكم البريطاني لها وكيف أصبحت لعدن مكانتها العالمية وتاريخها الحديث الذي أدخلها في مصاف دول العالم صاحبة القرار الاقتصادي والسياسي المسيطرة على طرق الملاحة الدولية، والتاريخ في هذا الكتاب لا يقف عند حدث المكان بل يتصل بجغرافية الموقع التي تصنع القرار السياسي كما تحرك عجلة الاقتصاد وفي هذا الوضع تصبح عدن مدينة عالمية ليست لمجرد الموقع ولكن لمقدرتها على تحديد مصائر السياسات الدولية والتحركات المالية وكذلك إعادة رسم وتوزيع مراكز القوى التي تدرك أن لعدن خاصية لا يمكن تجاوزها عندما تبدأ المصالح في التصارع وعندما تبدأ الأحداث في صياغة جديدة للتاريخ لذلك يضع المؤرخ عبدالله يعقوب خان موقع عدن ضمن الجغرافية التي لا تقف عند حدود المكان بل تصل عبر البحار إلى عوالم وشعوب جاء منها الكثير إلى عدن فكانت عالمية هذه المدينة.

يقول الأستاذ عبدالله يعقوب خان عن موقع عدن الجغرافي : (تقع عدن القديمة في شرق شبه جزيرة عدن في الجزء المقعر حيث كانت فوهة بركان منطفئ ويقسمها إلى أجزاء مجرى مياه السيول الذي يجري من الصهاريج إلى صيرة ويبلغ طولها نحو 1500 ياردة.

تقع شبه جزيرة عدن بعيدة عن أرض بلاد العرب بنحو 5 أميال ويصلها برزخ خور مكسر الضيق الرملي.

تبلغ مساحة عدن نحو 80 ميلاً مربعاً، تشمل الأقسام التالية :

1-شبه الجزيرة التي تضم مدينة عدن القديمة 2 - المعلا 3 - التواهي 4- البرزخ الموجود فيه خور مكسر 5 - بقعة من الأرض شمال الميناء والبرزخ حيث تقع قرى الشيخ عثمان والحسوة وبير جابر والعماد والغدير6 - جزر ميون – كمران في البحر الأحمر.

كانت عدن أول مكان آهل بالسكان وهو أقدم واكبر جزء ويحتوي على آثار تاريخية.

يبلغ طولها نحو 1500 ياردة وعرضها نحو 1250 ياردة وهي محاطة تقريباً بسلسلة تلال عالية تجعل المكان كما لو كان حصناً طبيعياً وتقع على بعد 5 أميال وتتصل بطريق نافع ببلدة التواهي.

وتقع عدن في الشمال الشرقي لشبه الجزيرة وتحتوي على 3000 عمارة وهي مركز عملي.

كان يستعمل الخليج الأمامي الواقع شرق عدن كميناء إلى أن نقل الثغر إلى المرفأ الحالي للسفن الكبيرة في ميناء التواهي والسفن الصغيرة في المعلا.

ويمكن الوصول إلى المعلا من عدن مارين بالعقبة وهي فتحة ضيقة عند ملتقى سلسلة جبال المنصوري بسلسلة جبال شمسان.

ويبلغ عرض هذا المضيق 30 قدماً وارتفاعه نحو 225 قدماً ويوجد مرفأ كبير حيث ترصف البضائع من البواخر وسفن المدينة وحيث يطالب بعوائد الميناء.

وقد بنى البورترس التجار مخازن كبيرة ودوراً واسعة لخزن البضائع . والمعلا هي المكان الوحيد في عدن حيث تبنى السفن الكبيرة ويمكن أن نسميها ميناء السنابيك.

تقع حجف – جيف في شمال الطريق الذي يقود إلى التواهي ويوجد على يمين الطريق من عدن المنزل المصدر للقوة الكهربائية وتوجد مرافئ كثيرة تمتلكها شركات خصوصية حيث ترصف البضائع من البواخر وفي غرب الطريق على سهل حجف توجد ايضاً مقابر المسيحيين وآبار الزيت للأسطول البريطاني وفي سفح سلسلة التلال يوجد مستشفى للوطنيين للجدري والأمراض المعدية وآخر للأوروبيين مبني على التل بالقرب من مضيق حجيف أمام قسم البوليس وعلى مرمى حجر من ذلك المكان توجد الترسانة ومعمل ثلج ومغسل الملابس، لي كاوجي.

التواهي : تقع غرب عدن عند سفح سلسلة تلال تسمى " أما نخل " والجزء الذي يواجه خليج التواهي يسمى الهلال لان شكله من بعيد يشبه الهلال ويوجد فيها الفنادق والحوانيت وقد استرد جزء من خليج التواهي وهناك على ارض ذلك المكان يشد النادي الشرقي البورت رس ومكتب شركة الزيت البريطانية الفارسية.

ستيمر بونت : عرف باسم مركز الفحم لان الفحم كان يخزن فيه.

وتبتدي ستيمر بونت من دكة البوستة – البريد – وتنتهي عند وادي جول مور ، وسمي هذا الوادي بهذا الاسم باسم شجرة تنبت في هذا المكان.

ويوجد في أعلى التل الذي يشرف على الميناء مستشفى الأوروبيين العمومي ومكتب الشحن ويوجد في سفح التل كنيسة وتوجد في الأرض المستردة عمارات جيدة من ضمنها معهد رجال الطيران والبحارة والعساكر وابعد من ذلك على اليمين يوجد تل رأس مربط " قلعة صغيرة " وعليه مشيد الحصن وعمارات موظفي بورت رس وربان السفن.

أما عمارات طبيب الميناء وعمال إدارة العلم والمعسكر والى جانبهم مستشفى المحطة فهي مشيدة كلها على سلسلة تلال.

ويوجد على تل طاريشن " قلعة كبيرة " الحصن ومنزل المندوب السامي ومنازل أخرى يستعملها قواد الحرب. ويوجد على رأس بردالي مكتب شركة التلغراف الشرقية ومنازل لموظفي هذه الشركة.

وفيما بعد ذلك يعرج الطريق إلى وادي جول مور حيث يوجد حمام للسباحة ويوجد على التل المسمى ظهر الفيل فنار.

خور مكسر : هذا الاسم مقتبس من كلمة عربية الأصل ، خور " خليج" مكسر " مكسّر" أي خليج مكسر ويقع خلف باب السلب لان حكومة عدن البريطانية منعت البدو من دخول عدن بالسلاح فكانوا يبقونه عند هذا الباب.

وهذه القطعة من الأرض تصل عدن بالشيخ عثمان التي سميت باسم الشيخ عثمان الولي الشهير المقبور فيها ويبلغ عرض الأرض 1350 قدماً وتسمى برزخاً.

كانت عدن في قديم الزمان جزيرة ولكن البحر تراجع فوصل الجزيرة بالبر الثاني والجزء الواقع شرق الطريق الذي يقود إلى الشيخ عثمان كله صحراوي مغطى بالرمال ويوجد في الغرب معسكر قوات الطيران الملكية والمطار وابعد من ذلك بقليل يوجد ملعب الكرة وحلقة لعب الصولجان "الجولف " ومعامل الملح.

وتحتوي معامل الملح على عدد كبير من العمال الأعراب الذين هم معظم سكان الشيخ عثمان.

والشيخ عثمان بلدة منظمة حديثاً اشتريت من سلطان لحج عام 1882م ليسكن فيها الأهالي الزائدون وهي تبعد بمسافة (10) أميال عن عدن وتتصل ببرزخ خور مكسر وتبلغ مساحتها نحو (39) ميلاً مربعاً وتحتوي على عدة بساتين ومنازل ومساكن افرنجية وبستان كبير يسمى بستان البلدية.

وقد كانت الشيخ عثمان من عهد لا يذكر هي منبع المياه وفي أثناء الأعوام 1924 ـ 1929 نجحت الحكومة في جلب كميات وافرة من المياه العذبة تعرف بمياه الآبار الارتوازية لأن المياه تطلع من الأرض بعد حفرها.

عدن الصغيرة: ويسميها العرب الغدير بعد دفن ولي فيها بهذا الاسم، وهي شبه جزيرة واقعة غرب عدن ويصلها ببلاد اليمن قطعة ارض ضيقة وتبلغ مساحتها نحو 15 ميلاً مربعاً ويسمى التل الموجود فيها جبل إحسان، وفيها قرية صغيرة تسمى بريقة حيث يقطن الصيادون والتجار الصغار.

ويوجد بالقرب من عدن الصغيرة معمل ملح، ويقع خليج عدن بين التواهي وعدن الصغيرة).

ومن مناطق عدن التي يتحدث عنها الكاتب، منطقة الحسوة التي يذكر أنها قرية تبلغ مساحتها نحو 39 ميلاً مربعاً وهي تروى بالسيل الجارف من الوادي الكبير، وكان عدد سكانها عام 1929م قد بلغ 8000 نسمة أكثرهم من العرب الرحالة، ويوجد فيها شجر النخل والبلح بكثرة ويستخرج عصير من هذه الشجرة النخل ليصنع منه الخل الذي يستخدمه أهل عدن ويعرف باسم الطاري.

وتقع القرية بالقرب من البحر تقريباً ويمكن أن تشاهد أنوار مدينة التواهي ليلاً، وعندما احتل الانجليز عدن، كانت تأتي إليها المياه من هذه القرية في قرب مصنوعة من الجلد كبيرة الحجم تنقل على ظهور الجمال وتقطع تلك المسافة من الحسوة حتى عدن.

أما عدد الخلجان التي توجد على المنافذ البحرية لعدن فقد وصفها الكاتب، بخليج جزيرة صيرة الذي يعرف باسم الخليج الأمامي ويقع شمال شرقي عدن وكان هذا المكان قبل دخول بريطانية ثغراً للسفن الشراعية.

خليج حقات وموقعه أمام البوابة الجنوبية لميناء عدن القديم. خليج أبو الوادي أو ما عرف أيضاً باسم خليج الصيادين. خليج الجزيرة المستديرة والمعروف باسم خليج دنافة ويقع جنوب عدن خلف سلسلة جبل شمسان.

وفي غرب التواهي تقع الخلجان التالية: خليج الفتح، خليج جول مور، خليج التلغراف خليج سفر ميناء، خليج البوسة، خليج الفرنسي.

أما عن موارد المياه لعدن فهو يشير إلى أن المياه كانت تصل إلى سكان عدن قبل دخول بريطانية من الصهاريج وآبار قريبة من وادي العيدروس ووادي الخساف، ولكن بعد ذلك أصبح الماء يجلب من مصادر عديدة وهي:

1ـ تقطير ماء البحر، 2 ـ الآبار الارتوازية المحفورة، 3ـ مياه الأمطار المخزونة في الصهاريج. 4 ـ الآبار العميقة.

وحول هذا الجانب يقول:

(تتحول مياه البحر بعد التبخر إلى مياه عذبة بواسطة المقطرات كما يفعل في البواخر وتستعمل هذه المياه للشرب.

حفرت آبار في الشيخ عثمان بالقرب من بساتين الحكومة الواقعة وسط دلتا وادي تبن في منتصف المسافة بين مصبي وادي الكبير ووادي الصغير، وتحبس المياه في الأحواض بواسطة الانابيب ومن هناك يبتاعها المتعهدون أو رجال المياه فينقلونها على عربات تجرها الجمال ويبيعونها إلى سكان عدن بالاسم العربي (مياه بورم).

وبما أن هذه المياه ارخص من غيرها فقد حلت محل المياه المقطرة.

حفر أول بئر لهذه المياه عام 1924م ويبلغ عمق أعمق بئر 1665 قدماً وهو اقل ارتفاعاً من قمة جبل شمسان بمقدار (110) قدماً أو بعبارة أخرى أعمق من نفق بغدة عدن الكبير بمقدار 615 قدماً.

3ـ في الأماكن التي يقل فيها المطر يبني الناس صهاريج ويجمعون فيها مياه الأمطار للاستعمال. وقد بني العرب القدماء المعروفون بالحميريين مثل هذه الأحواض في عدن ووجدها البريطانيون مملوءة بالأتربة والفضلات، فنظف بعضها عام 1899م.

تسمى صهاريج عدن باسم صهاريج الطويلة، ومياه الأمطار التي تقع على التلال تصب في هذه الصهاريج ويبلغ مقدار المياه بعد ملء كل الصهاريج 14 مليون جالون وتستعمل هذه المياه للغسل ولري البساتين .

4ـ يستعمل أهل عدن مياه بئرين في هذه الأيام وهما مياه بئر بانيان يستعملها البرهميون، ومياه بئر الطويلة تستعمل لري المزروعات وللماشية).

عام 1500م تم بناء قناة تحمل المياه من بئر ماحط إلى عدن لتصب في الصهريج الكبير الذي يوجد خارج مجموعة الطويلة، والذي عرف باسم بلغير أو صهريج الفارسي المستدير وقد بني في عهد حاكم عدن عبدالوهاب بن عمر.

عندما زار الرحالة العالمي ماركو بولو عدن عام 1290م كانت قد شهدت نهوضاً واسعاً في التجارة حتى إنها صدرت الخيول إلى الهند، وطلب حاكم عدن ضريبة كبيرة عليها.

عام1422م أرسل إمبراطور الصين رسولاً إلى حاكم عدن وكانت حالة التجارة فيها قد بلغت مراتب متقدمة، حاملاً خطاباً وهدايا إلى حاكم عدن حتى يسمح للمعاملة التجارية أن تجري بين الصين والعرب.

وجاء هؤلاء ببضائع ثمينة مثل الياقوت والكهرمان إلى أسواق عدن.

وفي تلك الحقب السابقة ظلت عدن من أهم الأسواق لكل تجارة ثمينة مثل اللبان والرخام والطيب والبخور وكانت الطرق تمر مابين الهند والصين وأفريقيا ومصر وسوريا.

وقد تراجع موقع عدن تجارياً بعض الوقت عند اكتشاف الطريق حول رأس الرجاء الصالح على يد الرحالة فاسكو دي جاما 1479 ـ 1500م ولكن سرعان ما اهتمت الحكومة البرتغالية بعد هذا الاكتشاف، بان تجد ميناء مناسباً للسفن التجارية وفي عام 1513م وصل القائد البوكر إلى عدن مع أسطول بحري، غير انه لم يقدر على احتلال المدينة ولكنه احرق ونهب كل السفن الراسية في ميناء صيرة، وكان الأتراك في ذلك الوقت في حرب مع البرتغال في عهد السلطان العثماني سليم الأول 1512 ـ 1520م غير أن الأتراك انتهزوا فرصة تراجع البرتغال عن عدن وجاؤوا إليها وبدلاً من الحصار التجؤوا إلى الخدعة فشنقوا الأمير مرجان أمير عدن، وجاؤوا بمئة مدفع تحمل اسم النبي سليمان(وقد وجد القائد هينس عند احتلاله عدن احد هذه المدافع الكبيرة وقد نقله إلى بريطانيا وهو موجود في برج لندن).

في هذا السفر التاريخي يقدم لنا مؤرخ عدن الأول في القرن العشرين الأستاذ عبدالله يعقوب خان معلومات لها أهمية كبرى عند كل باحث في تاريخ هذه المدينة، وما أصبح بحكم الماضي من تلك الأحداث.

ودون شك تظل مؤلفات الأستاذ عبدالله يعقوب خان من أهم الإصدارات التي حفظت من تاريخ عدن ماغاب عن الحاضر، وهذا يدل على أن الذاكرة التاريخية لعدن مازال الكثير من صفحاتها بحاجة للبحث والقراءة ومرجعية عبدالله يعقوب خان إحدى هذه الركائز في التعامل المعرفي مع مكانة عدن في التاريخ، انه البحث في عمق الانتماء والهوية وهي الشخصية الحضارية لعدن المدينة التي عاشت مع العالم عبر البحر وتلك البوابة المفتوحة على أوسع المسافات نحو العالم الذي مر من هنا .

همس حائر

فاطمة رشاد

1 -كنت انتمي إلى عالمه ولكن حين بدأ يغضب قلبي
تركته في ركن مجهول من حياتي ..
هكذا انتمينا إلى عوالم وانتهينا فجأة...
2 - ثمة حزن يرافقك ياحبيبي
دعه ينسحب من قلبك لتحيا بسلام ..

قصة قصيرة

عائد من الموت

فواز الحيدري

هكذا جئت دون إرادتي، تنفست المواجع ،خفقات قلبي جراحات دمي تدفق آهاااات، أحزان العالم أجزائي ،الخريف رثائي...

فانا واحد من هذا الجيل المحبط الذي رأى أحلامه تتمزق وهو يسعى حثيثاً نحو نهاية العقد الثالث من عمره وجل ما يحلم به لقمة خبز لا تغمس بمهانة، وبصباح لا يفقس غبشه بفاجعة جديدة.

فبرغم أجسادنا المشبعة بالانهيار ما زلنا نروي من دموعنا الأرض ونقتات من وجع الكد والعناء ولا نكل .. يلسع الليل أجسادنا فنتلو ترانيم حبنا السرمدي للام .. للأرض .. لهذه المدينة التي يحاول العبد والجلاد أن يجعل منها مدينة للتشرد، يحلم بموت الصباح فيها ومجد الظلام ... فهيهااااات هيهات....

فعندما عزفت الرصاص مقاطع الألم في بكارة الغبش ذبح الريق في فمي ورسم في جسدي المتهالك خارطة الألم.

الاصوات تتعاااالى .. صوت ارتطام ما يتبعه ظلام تام .. ثم ... لا شيء... ألم حاااااد فتحت عيني، الألم احتل مساحات واسعة في جسمي ثم تركز في الظهر.

أسفل الظهر الجانب الأيسر .. غربة المكان والزمان الذي ساد حين غرة عقد لساني... التفت شرداً إذا بأطرافه ملفوفة أشرطة وضمادات بطريقة جعلتني استهون مصابي (الحمد لله على السلامة) الحمدلله -تومض الأسماء وتتلاشى، ويأتي البشر ويرحلون ويتوالى الزوار على المستشفى .. ويبقى الوطن شامخاً عملاقاً ... ورفعت السبابة الوسطى لينثال بريق الانتصار

سطور

الجزء الثاني

أيام تونسية .. حلق الواد (la coulee)

د. مبارك سالمين

في اليوم الأول لإقامتي في (حلق الواد) في طابق فيللا، تسكن عائلة المالك في الدور الأرضي منه، هبطتُ للبحث عن ما يمكن أن يؤكل في الصباح، وعلى بعد أقل من عشر خطوات فوجئت بمحل مرطبات و(جاتوه) تديره امرأة في منتصف العمر ومنتهى اللطف والنظافة، بادرتني: مرحبا بيك إيش تحب، قلت ما تشائين. قالت تحب كرواسا، قلت نعم، وكانت أجمل كرواسا أذوقها في حياتي من أنظف يد وأرق امرأة يمكن أن تقابلها في الصباح في مدينة لم يمر عليك أكثر من يوم على السكن فيها. هذه (حلق الواد) التي قررتُ أن أسكن فيها بعيدا عن الكلية وبعيدا عن العاصمة تونس.

حلق الواد: (La Goulee) هي مدينة وميناء تونسي يقع شمال البلاد قرب مدينة تونس العاصمة، وهي مدينة ا اليهودية والمسيحية والإسلام، ويهود حلق الوادي هم أقدم جالية يهودية عرفتها تونس، وموقع سكني أنا وحبيب ورامي أمام دار للمسنين ممن تبقى من اليهود وآثر البقاء في تونس بدلا عن السفر إلى فلسطين. ومثل مافي حلق الواد من تنوع، عربي وغير عربي، تونسي وغير تونسي، كان في بيتنا تنوع لدولتين اليمن وسوريا وفي تونس، لم يكن ذلك الأمر مريحا لأعوان الأمن في المدينة، خاصة في حلق الواد حيث تتواجد آخر جالية يهودية من المسنين، وقد تجلى ذلك الأمر في تأخر إصدار إقاماتنا للعام 1994، حيث بقينا دون إقامات حتى نهاية العام الدراسي. لأن اليمن وسوريا مصنفة في العقلية الأمنية التونسية في أحسن الأحوال دولا حاضنة للإرهاب.

لنعد الآن إلى حلق الواد وبناتها وأهلها ومطاعمها وروعة سوق السمك وإنسانيته على الرغم من غلاء الأسعار خاصة بالنسبة لي كعدني ينام ويصحو على وجبة سمك طازج طوال أيام الأسبوع، حيث السمك في مدينتي عدن هو أكل الفقراء، وليس أكل الطبقة الوسطى والأغنياء، ولم أعلم أن السمك أغلى من لحوم الماشية إلا في تونس، لأننا تعودنا إن أرخص الأكل في مدينتنا هو الأسماك لأن عدن شبه جزيرة أجمل من تونس، وأجمل ماخلق الله في الأرض على الأقل بالنسبة لي.

في العام الأول كنت أنا وأصدقائي نحس أحيانا بأننا غيرتونسيين بسبب ارتباط كل منا بمدينته التي جاء منها، لكننا بعد ذلك لم نشعر بهذا الإحساس، وحين جاءت بعثة سينمائية فرنسية لتصوير فيلم تونسي فرنسي مشترك تدور أحداثه في حلق الواد، وحجزت عنا الحركة لأيام في الشارع بسبب التصوير والمعدات الفنية الضخمة وتجهيزات الإنارة والتصوير، هذا الفيلم الذي يجمع بين فتية وفتيات من مرجعيات دينية مختلفة لتأكيد التسامح الديني الذي تختص به حلق الواد، أحسسنا حينها بمشاعر الفخر لأننا أحسسنا بالانتماء إلى هذه المدينة هذه الروح التي تسكن فينا. هذه المدينة التي تجعلك تلمس لمس اليد هويتك المنتمية إليها على الرغم من أن وثائق إقاماتنا الرسمية لم تكن تصدر بالسرعة العادية بسبب الحذر الشديد من هذه التشكيلة العربية وفي مكان مواجه لسكن المسنين من اليهود في حلق الواد وربما لأسباب أخرى لكننا لم نكن نكترث لهذا لأننا قد اندمجنا في نسق المدينة وأحسسنا بأنا من أبنائها ولا نحتاج لمثل هذه الوثائق حيث كنّا نفرح لفرحها ونحزن لحزنها.

قطار حلق الواد - تونس :

الرابط الرئيس بين حلق الواد وتونس وهو القطار، وهذا القطار الرمادي اللون من أنظف وسائل النقل وأكثرها فائدة وانضباطا في المواعيد، وكثيرا ما تشرق الشمس وأنا راكب في إحدى مقصوراته يلفني دفء العمال والطلاب الذاهبين إلى تونس العاصمة ومنها إلى أماكن عملهم ودراستهم، ولم يكن بعد مقر سكني عن الكلية التي أحضر فيها شهادة الدراسات المعمقة شيئاً سيئاً كما قال لي بعض الزملاء اليمنيين، لأنه منحني هذه الهبة الصباحية التي تتيح لي التأمل في الأوجه المستبشرة الصبوحة وفي مشاهدة الطيور البحرية التي تحتل محمية كبيرة، هي تقريبا على امتداد طريق القطار من حلق الواد إلى تونس العاصمة. هذه الهبة الصباحية اليومية، إضافة إلى ميزة دائمة هي أنني كنت معروفا بين زملائي وزميلاتي بأنني (صاحب حلق الواد) وهي مكانة يعتد بها كثيراً، خاصة في إجازات نهاية الأسبوع. اليوم الذي تتكدس فيه كل سمراوات وشقراوات تونس وزوارها عند البحر، حيث تكون رائحة المكان من رائحة النساء والصبيات تشع بخمرة الحياة، وإذا هفت روحك لمطالعة إحداهن أو التحدث إليها متوددا ببعض الألفاظ الغائمة السكري والأغنيات المعبرة عن الوله، ترد عليك بقولها - بعذوبة لا تحتمل - : (حووت عليك) أي لن تمسني لأنني كالحوت في البحر. أي نعم حورية عليها صلاة النبي.

كما أن هذا القطار عندما يبدأ صيف حلق الواد يتحول إلى مولد متحرك يضج بالسماحة ويفتح أفقا جميلا للتعرف على جمال تونس وتنوعها البشري. بالإضافة إلى الوافدين إليها من شرق الأرض وغربها ومن كل ديانات السماء والأرض، وحينها نكون نحن سكان حلق ألواد، حتى من غير التونسيين أبناء المدينة المصطفاة للتونسيين والعرب والأجانب صباحا ومساءً في الصيف. أي نعم نكون نحن أولياء هذا المولد الذي يزار.

وبسبب البعد عن الكلية والإقامة في فضاء حلق الواد فأنت تقضي يومك في تونس العاصمة من الصباح إلى المساء. وبهذا تتعاظم علاقتك بالمكتبات وبدار الصحافي ودار الكاتب والمسرح البلدي بالمدينة ومهرجاناته، تتعاظم علاقتك بشعراء ومثقفي المدينة الذين يرحبون بك على الدوام كأنك واحد منهم، حيث تسمعهم ما لديك وتستمع إلى آخر تجلياتهم الشعرية والأدبية، وحين ترجع في آخر الليل تكون جوهرة حلق الواد في انتظارك كالمحبوبة وياسمين بيوتها العتيقة قد فاح وأفرد ذراعيه لاحتضانك كي تنام على صوت موسيقى البحر الأبيض المتوسط.

وأهم ما أتذكره أثناء إقامتنا في حلق الواد، هو سقف الحريات الفردية الذي تتمتع به المدينة عن غيرها من الأحياء التونسية، حيث لا أحد يكترث بأحد والشارع ليس ملكا لأحد وشط البحر ليس ملكا لأحد ولا أحد يفرض عليك ما يجب أن تعمل وما لا يجب سوى ذوقك الحضاري وسمو ثقافتك التي تمنعك أصلاً أن تمارس ما يخدش الحياء العام أو ما يؤذي الناظر إليك، مدينة تعلمك فن المعيش مع الآخرين، مدينة هي لك وللآخر في الوقت ذاته سلاما أرض حلق الواد سلاما للناس والمكان سلاما للمحبات التي أحاطت بنا ذات يوم فاسكرتنا حتى الآن، سلاماً لجدران البيوت التي تشع بالألفة والتسامح، وترشح بالمحبة، نعم لقد كنت في غمرة إقامتي في هذه المدينة الرائعة سعيدا بما أرى ولم يكن واضحاً -على السطح - بالنسبة لي في تلك الفترة - حجم العسف أوالكبت السياسي والاجتماعي والثقافي الذي يعانيه الشعب التونسي جراء السمة الديكتاتورية للنظام السياسي في تلك الفترة (حكم بن علي)، لأنني كنت أنطلق في تحليل الأوضاع التونسية من منطلقين، أولهما: واقع الأرقام التي تنشر في الصحف والدوريات، وهي أرقام تؤشر إلى درجة من الرخاء والتقدم الثقافي والنمو الاقتصادي، حتى وإن لم يكن بحجم طموحات وتطلعات الشعب التونسي، وكنت أحس أحيانا بحدس المتخصص ببعض علامات التمويه والتدليس في الخطاب السياسي وبعض المبالغات في تقدير حجم المنجز الوطني لكنني أعود وأقول لنفسي: إن تونس أفضل من كثير من الدول العربية على الرغم من أنها ليست من أغنى دول العالم العربي، ففي مجال التعليم مثلا، لا توجد دولة عربية حسب علمي تنفق على التعليم ما تنفقه تونس، قياسا لموازنتها العامة، فهي على سبيل المثال تقدم التعليم للتونسيين والعرب والمسلمين دون رسوم دراسية تذكر بل وتمنحهم في كثير من الحالات السكن الجامعي والمنح المالية وبطاقات التنقل في الشبكة العامة للحافلات التابعة للشركة الوطنية لنقل الركاب في العاصمة وضواحيها، والمطاعم الجامعية التي تقدم وجبات صحية بأسعار رمزية، وهو نظام قد هجرته معظم دول العالم، حيث أصبح التعليم فيها سلعة غالية الثمن لا يصل إليها إلا من لديه ثمنها.

والمنطلق الثاني هو أنني قد وقعت في شرك المقارنة بينها وبين اليمن، ولا داعي للاسترسال في هذه المقارنة لأن نتيجتها معروفة للقاصي والداني.

وخلاصة القول فالسكن في حلق الواد هو بمعنى من المعاني سكن بين الأهل، وإقامة لا غربة فيها، إقامة تضعف الحنين إلى الدار. لأنها إقامة في الدار. لأن تونس في حلق الواد أو في غيرها من الأحياء كالمروج أو حي التحرير، - وهي الأحياء التي أعرفها كمواطن لا تتركك بدون أصدقاء وأهل، لأن قلبها الحنون لا يحتمل عذابات الغرباء والعابرين. ولشدة الوله الذي سكن في دواخلنا نحن المشارقة القاطنين في حلق الواد في تسعينات القرن الفارط، للقارئ أن يتصور أننا بعد مرور هذا الزمن (1993 - 2012) نلتقي في المقهى الكوني حسب تعبير الشاعر العربي الجميل يوسف عبد العزيز (فضاء الفيس بوك) حبيب الراعي وأنا، مصادفة أمام منظر ليلي مضاء لمدينة (سيدي بوسعيد) التي يدللها التونسيون بـ (سيدي بو، فأقول له: مبارك سالمين يا ألله.. يا ألله، تصور يا حبيب أنا الآن في، وأنا أرى هذا المشهد أعمل في الفصل الثاني من كتاب أيام تونسية بعنوان حلق الواد، فيرد حبيب بتلقائية: حبيب الراعي: الله يا مبارك لا تقلّب المواجع، آه يا حلق الواد ويا شارع روزفلت واللبلابي * والفطاير والحوت شارع بورقيبة آه على أيامنا.

وأضيف في حوار داخلي نعم (الكسكسي) وشارع بورقيبة ومهرجانات قرطاج الدولية للمسرح والسينما والأغنية، وأتذكر أنه ذات مهرجان من مهرجانات قرطاج للسينما عرض فيلم (ناصر 56) للفنان العظيم أحمد زكي، وفي العرض الأول الافتتاحي للمهرجان كاد الشارع التونسي بمشاعره العربية والقومية في اكتظاظه بالبشر قبل العرض بساعات أمام سينما (الكوليزي) وسط العاصمة ووسط شارع بورقيبة، أن يفلت من يد وزارة الداخلية، حيث بدأ الشارع يمور ويتوثب لقفزة أخرى في تاريخه النضالي لولا تدخل المشرفين على المهرجان الذين أوقفوا العروض الأخرى للفليم وهو كما أتذكر لم يكن ضمن المسابقة الرسمية للمهرجان، ولكنه كان سيجر المهرجان والشارع معه في حدث آخر مختلف لولا يقظة الداخلية التونسية وحسها الوقائي. وقد كنت حاضرا للعرض الافتتاحي وأحسست بهيجان الشارع وتوقعت حدوث شيء ما. لكنه حسب الماركسية اللينينية عدم نضوج الوضع الثوري، لأن دهاة الحكم في قصر قرطاج ومستشاريهم كانوا يشتغلون ليل نهار لامتصاص النقمة الشعبية من خلال ترشيد العنف والإقصاء والاستبداد.. والعمل على هيكلة الأحياء الشعبية وتزيين المدينة لكي تبدو هانئة ومرفهة، غير أن ذلك كله لم يحجب شعاع شمس الثورة والقهر.